أصحاب الأخدود[1]

صَنْعَاء[2] قد لفَحَتْها الشمسُ بِسهامها المُحْمَاة، ومسَّتْهَا الصحراءُ بأُوارها المتسعر، ولهذا أقفرت شوارِعُها، وسكنت حركتُها، وخَلَتْ من الناس، إلا رجلاً ظهر فجأة من الشمال، وكأنه قادم من الصحراء، وقد جاوز الأرْباض[3] والحدود، واتخذ سبِيَله نحو قصر الملك ذي نُوَاس.

كان كلُّ ما فيه يبعثُ على الشكّ والارتياب: وَجْهٌ يعلوه الوُجوم، وعَيْنَان تختلجُ فيهما الحيرة، وخطواتٌ مضطربة غيرُ مطمئنة، وكأنّ بين جنبيه سرًّا يريد أن يُفْضِيَ به، أو أمراً جليلاً قدم من أجله، إلا أنَّ حارس القصر لم يَدَعْه يستمر في اضطرابه، بل سأله ما قدومُه في هذه الساعة التي ألزم فيها الحرّ الناس الدُّور، وسكن فيها الإنسانُ والحيوان، والطيرُ والنبات؟

قال الرجل: أتيت في أمر جليل الخَطَر، عظيم المقدار، أكاشِفُ به ذا نواس.

قال الحارس: إن المَلك في شُغْل عن لقائك، ولقاء غيرك من الطُّرَّاق والوافدين، وإنْ يكن انتهى من قَتْل ذي الشَّناتر، وتوطيد الملك في صَنْعاء، وإرجاع اليهودية في اليمن إلى ما كانت عليه في عَهْد تُبَّع؛ إلا أنه يُعِدّ العدّة، ويهيىء الرحلة لغزوةٍ بعيدة في الأرض، تنتظم الشرقَ والغَرْب، والسهل والجبل، وقد أقسم يميناً غليظة ألَّا يَقَرّ له جنْبٌ على وِساد، ولا يغمض له جفْنٌ على نوم هادىء، حتى يرى اليهوديةَ ديناً شاملاً، وحكم التوراة في الأرض نافذاً، وهو حينما تضيَّفُ الشمس للغروب، وحينما تخفّ وطأة الحر ـ يخرج إلى هذه الحديقة من القَصْر، ويجمع إليه الأذْوَاء[4] والأقيال[5]، والأشرافَ

---

(١) الأخدود: الشق الطويل في الأرض.

(٢) صنعاء: مدينة باليمن.

(٣) أرباض جمع ربض: وهو ما حول المدينة.

(٤) الأذواء جمع (ذو) لأن ألقاب ملوك اليمن تبدأ بـ ذو مثل: ذو يزن وذو الكلاع.

(٥) الأقيال جمع قَيْل: من مللوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم.

والقوّاد، الذين تألّفهم لطاعته، وأرادهم على دِينه، فيُشاوِرهم في الأمر، ويهيئون جميعاً سبُلَ الغَزْوِ والجهاد.

قال الرجل: إنني لم أبعد شيئاً عما فيه الملك، وإني ما قدمتُ عليه إلا في أمر له صِلةٌ بهذا الدين الذي يَسُلّ سيْفَه في سبيله، ويريد أن يحملَ الناسَ على اتباعه، ولو أنك حدّثْتَه بما قدمتُ له فإنني لا أرتابُ في أنه سيدعوني إليه، ولا أشك في أنه سيهتَمُّ لهذا الشأن، وسيكون منه مَوْضِعَ تفكير وتدبير.

ثم أوى إلى زاويةٍ من زوايا القصر، ريثما تخفّ وطأة الحرِّ، وينزل الملك ليأخذَ مع مَن يجيء إليه فيما يهمّهم من شؤون.

* * *

وخرج ذو نُواس من مَخْدَعه، وأخذ سبيلَه إلى مكانه من حديقته، واجتمعت حولَه حاشيتُه، وقبل أن يخوضوا في الحديث جاء الحاجبُ يقول: إنَّ رجلاً قدم اليوم من نَجْرَان[1] للقاء الملكِ، وإنه ـ فيما يزعم ـ يريد أن يُفضِيَ إلى الملك بأمرِ دينٍ جديد، يُخشى منه على اليهودية.

قال ذو نُواس: دين جديد! عليَّ بالرجل من فَوْرِك وجاء الرجل فقال: أيها الملك المتوَّج! نعِم مساؤُك، ودام لك سلطانُك، ولْيَهْنِكَ الظفَرُ بأعدائك، ولْيهيء لك الله هدايةً وتوفيقاً فيما تريد، جئتُك، يا مولاي، لا طالباً رِفْداً، ولا مُستعدِياً بك على مظلوم، ولكنَّ حدثاً بنَجْرَان قد وقع، وإنه إن لم يُتدارك أمْره، فإنه يوشِكُ أن يمتدَّ إلى غيرها من البلدان، وربما امتدّ إلى اليمن، وربما جاوزها إلى غيرها من أصقاع الأرض.

فقال ذو نُواس: قد رَوَّعْتَني بأخبارك، وشغَلت بَالِي بحديثك، فهاتِ لما أجملْتَ تفصيلاً، ولما لوّحْتَ به بياناً وتبييناً.

قال الرجل: إنه منذ أيام قد دخل على نَجْران دينٌ جديد يدعونه النصرانية، ويُبشِّرون له باسم عيسى المسيح، فأمَّا الوثنيون مِنْ أهلها فقد ارتاحَتْ قلوبُهم إليه، وتغلغل في نفوسِهم، ودخَلوُا فيه أفواجاً، وأما اليهودُ ففريق منهم صبَأ عن دينه، ودخل فيما دخل فيه

(١) نجران: في مخاليف اليمن من ناحية مكة.

الوثنيون، وفريق ظلَّ على اليهودية، ولكنه مُمْتَحَنٌ بالأذى، مُبْتَلى بالكَيْد، وإنْ لم يتدارك الملك اليهودية بنَجْران فإنه يوشكُ أن يمَّحِي ظلُّها، ويعفُو رَسْمُها، وينتهي تاريخها.

فاستوى ذو نُواس في جلوسه، وكأنه قد غُصَّ بريقه، وقال: كيف دخل هذا الدين نَجْران؟ وكيف مُكّنَ له في هذه الأرض؟ وكيف استطاع أن يصلَ إلى القلوب على قُرْبِ عهده وحداثة ميلاده؟! زِدْني إيضاحاً.

قال الرجل: قد وفد على نجْرَان فيمن يَفِدُ عليها من الأرِقّاء رجلان؛ أحدهما رُومي واسمه فيميون، والآخر عربيٌّ واسمه صالح، أمَّا فيميون فاشتراه رجلٌ من الوثنيين عُبَّادِ النخلة، فوجده كريماً مِسْماحاً، يجولُ في غُرَّته ماءُ التقوى، ويفوحُ من خلائقه عَرْف الصَّلاَح، فكان يعمل له عامة يومه، لا يعرف الكَلال[1] ولا الشكوى، فإذا كان المساء أوَى إلى حجرة أفردها له ليصلِّي فيها.

وطلع عليه سيِّدُه يوماً فوجده يصلِّي، والحجرةُ مضيئة من غير سِرَاج! فعجب منه وسأله عن دينه، وهل يؤدّي عبادة أخرى لغير هذه النخلة التي يعبدونها، ويستلهمون أسرارها؟ قال: إنما أعبدُ الله مالكَ الملك ومدبِّرَ الْخَلْق، ومصدرَ الوجود، ذلك الذي أرشدَ المسيحُ إلى وجوده، ودلَّ على قدرته؛ وأما هذه النخلة فإنها لا تملكُ ضَرًّا ولا نفعاً؛ بل لا تستطيع جَلْبَ خيرٍ لها، ولا دَفْعَ شر يُرَاد بها، ولو شئتَ لدعوتُ الله أن يرسلَ عليها ريحاً تجفّفها، أو ناراً تحرقها؛ فربما فعل، وربما استجاب.

قال له سيّده: أوتستطيع؟ قال فيميون: أتؤمن بالنصرانية لو فعلتُ؟ قال: نعم. فصلَّى فيميون ـ فيما يزعمُ أصحابُه ومُريدوه ـ ودعا الله فأرسل على نَخْلَةِ سيده ريحاً جفّفَتها وألقَتْها. فعند ذلك آمنَ الرجل، وشاعت هذه القالةُ في نَجْران، ودخل الناسُ في النصرانية أفواجاً.. ولستَ ترى الآن في هذه الأرض إلاّ مَنْ دخل، أو هو سيدخل، في هذا الدِّين.

قال ذو نُواس: وهل بقي عندك فضْلٌ من حديث؟ قال الرجل: لو شئتَ لحدثتك ما يتناقَلُه أهلُ نَجْرَان عن فيميون، لتعلمَ مبلغَ حبّهم لدينه، وتعلُّقهم بذاته.

---

(١) كلَّ: تعب، الكلال: التعب.

قال ذو نُواس: هاتِ كلَّ ما عندك، فإنكَ قد شغلْتَ بَالي بحديث هذا الدِّين وأمْرِ هذا الرجل.

قال: زعم رفيقُه صالح ـ من تاريخه معه ـ أنه بينما كان يَعْمَلُ في قرية من قرَى الشام إذ بَصُرَ بفيميون سائراً في إحدى طرقاتها، فشهد عليه علائمَ التَّقْوَى، وتحَدَّثَتْ معارِفُه عن عَقْلٍ راجح؛ فأحَبَّه وعلِقَ به، وتبعه أنَّى ذهب من حيث لم يُشْعره بذلك، حتى خرج في يوم من أيام الآحاد إلى الصحراء يصلي، وبينا هو في صلاته أقبل نحوه تِنِّين[١] فَاغِرٌ[٢] فَاه! فذُعر صالح وارتاع وصاح: يا فيميون، احذر التنِّين فإنه مُقْبِلٌ نحوك، ولكن فيميون أقبل على صلاتِه، وما اقترب منه التنّين حتى مات! عند ذلك ظهر صالح، واستأذنه أنْ يُرَافِقه ويأنَس به، فأذن له، وما زالا ينتقلان من قرية إلى قرية، وفيميون يُظْهِرُ من كراماته وعجائبه، ما زاد صالحاً فيه حبًّا، وبه تعلقاً، حتى كانا بإحدى البَوَادي إذ طلع عليهما بعضُ العرب، وأخذوهما أسيرين، ثم باعوهما في نَجْران، وكان من أمر فيميون ما سمعت.

* * *

وما انتهى الرجل من حديثه، حتى ثارت حفيظة ذي نُواس، واضطرمت نارُ الغَضَبِ في صدره، أن يَظهرَ في نجران دينٌ غير اليهودية، أو يعلوَ فيها حكمٌ لغير التوراة، وحلف لا يُغْمِدُ سيفاً، ولا تسكُنُ منه ثائرة، حتى يُنَكِّل[٣] بأهل نَجْران، أو يرجعوا إلى اليهودية مُذْعِنين.

وخرج ذو نُواس من صنعاء بجيش يمَلأُ أقطارَ الأرض قاصداً نَجْرَان؛ فلما وصل إليها ضرب من حَوْلها نِطَاقاً؛ فارتاع أهلُها وذُهِلوا! ولكنه قبل أن يبدأهم بعذاب، أو ينالهم بمكروه، جمع سادَتَهم، وأصحابَ الزَّعامَةِ فيهم، وقال: إني قد رأيتُ ـ كرَماً وتفضلاً ـ قبل أنْ يستَحِرَّ[٤] فيكم القَتْل، ويعمل فيكم السيف، وينالكُم الأذى ـ أن أُخَيِّركم بين

(١) التنين: نوع من أنواع الحيات خطر جداً.
(٢) فغر فاه: فتحه.
(٣) نَكَّل: عاقب بما يردع ويروع الغير من إتيان مثل ما عاقب عليه.
(٤) استحرَّ القتل: اشتدَّ.

اليهودية، ديني ودينِ تُبَّع من قبلي، وبين ما اعتنقتموه من دين جديد، ولستُ بصانعٍ لكم العذابَ حتى تفكّرُوا ولا بِمُعْمِل فيكُم السيفَ حتى تتدبّروا.

فقالوا: إنَّمَا النصرانية دينٌ أشربته نُفوسُنا! ودخلَ فيما بَين شِغَاف قلوبنا، ومالنا عنه مَحِيص ولا مَعْدل، وسواء علينا أوَسَّعْتَ لنا في الأجل، أم عَجَلْتَ لنا بالموت!

فلما رأى إصراراً وعِنَاداً، وتَمَسُّكاً بالنصرانية واعتصاماً، أمر بشق أخدود في الأرض، وأحضر وقوداً وحَطَباً، ثم أشعلوا النار، وبعثُوا الدخان، وأخذوا النصارى يُلقونهم في لهبها، لم يُعْفُوا شيخاً هِمّا، ولا امرأة عجوزاً، ولا طِفْلاً رضيعاً، حتى خلت نَجْرَان من النصارى، ولم يَبْقَ بها غَيْرُ اليهود.